

# الفصل العاشر

## نشاط الذهن

### ١ - صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوروبا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية العالمية ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا في التحدث إلى قواته . وألف جييون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفي ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطية وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة ، بشكل لا نزاع فيه ( وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا ) ، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي ، تنهل منها النخبة الممتازة في أوروبا ، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغت الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر في العبارة ، ورشاقة ووضوح في الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة في هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسي ضحى بالصرامة البريئة عند مونتاني والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو ،

وانزلت الأكاديمية نفسها - حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ - إلى شكليات غامضة وضآلة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية في عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكاتب . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب في كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان في باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات في كثير من المدن ، وكان في بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجماهير ، نظير رسم دخول ضئيل ( ٤٠ سو ) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتباً لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » ، وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانوني الوحيد هو الترخيص الملكي بالنشر وكان في هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه في فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون نخلو كتابه مما يسيء إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة في أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين إلى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطلع هناك بالفرنسية ويوزع في الخارج ، ويتداول سرا في فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين في باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثاؤ ضعف الدولة في عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية في المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التي حدثت من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التي كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بأذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كالتيها ، وانضمت الطبقة المتوسطة العليا إلى الأرستقراطية في اصغائها لهذا النقد ، أملا في تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفي هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقبولوا بالترحيب في الصالونات حيث تحدثوا وأبدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا في قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفي بعض الأحيان يسكنونهم في قصورهم ، مثل ما فعل بوبلينير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة في الدولة . قال ديكلوس في ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمررون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأي العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »<sup>(١)</sup> ( وفي ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذي يتحقق به تشكيل الرأي العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة ) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مئات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيلاؤها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد في الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية في الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التي شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهولة عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قنأاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نصح رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملاً في أن يطالعها أكثر من الشخص الذي أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئها ، كذلك نجحوا أحيانا في أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أي قطعاً من الأدب . وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعي وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسة والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة في الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت في معظم الأحوال نقاشاً في السياسة والأدب والفن ، وكانت في بعض الأحيان نثراً - لغة المجتمع - يزخر بالسجع الذي كثيراً ما يأتي عفواً الخاطر في الفرنسية ، مع أكبر الأمل في إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التي يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر ( أسقف وخطيب واعظ في القرن السابع عشر ) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعداب والأجيال القادمة . احتفظت بشيء من سحر المكاتبات وفتنتها ، وفي نهاية الحقبة ، في ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دي ستال دي لوني التي كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دي سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها في النثر (٢) .

## ٢ - المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التي احتلتها في باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرًا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاهاً ومالاً ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتي لصاحبها بالثروة والشهرة »<sup>(٣)</sup> . وكانت هناك في الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحي خاص في بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية في فرساي . ولكن التحمس للروايات في باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكويمدي فرنسيز » في « المسرح الفرنسي » بأعلى الدرجات في الموضوع والأداء ، ولكن الجماهير الفقيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وثأفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا في « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التي يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجاً واثراً فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، ( على الأرض ) التي نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأقنين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حواراً طويلاً ، فإن التمثيل المسرحي لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بداً سخيفاً<sup>(٤)</sup> وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحي أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطوني وهما يخطبان في أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين في هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أي من روايات شكسبير في مثل هذه الظروف<sup>(٥)</sup> وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التي أبدتها فيها ديدرو وغيره ، أثرها فما وافى عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح في فرنسا قد أخلت من المتفرجين .

ولبي فولتير نجاحاً أقل في حملاته لتحسين الوضع الديني للممثلين ، وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرسطراطية ، وفي كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت في اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والقضائح والأعمال الخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم في الأرض المخصصة للمؤمنين - وهي تشمل كل المقابر في باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجوراً من الملك ، في الوقت الذي تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقاً ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم في السجن ( كما حدث عندما أضرِب ممثلو جلالته عن العمل ) فإذا مثلوا ألقى بهم ( عند موتهم ) في البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، ونرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم (٦) .

وكانت أدريين ليكوفريير أعظم الممثلات الفرنسيات في زمانها مثلاً واضحاً لهذه المتناقضات في حياتها ومماتها . إنها ولدت في ١٦٩٢ قرب ريمس وجاءت إلى باريس في العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسي » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت في البيت الممثلات اللاتي أعجبت بهن وهي واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفي سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاهما الممثل « لي جراند » دروساً ، وهياً لها مكاناً في فرقة تمثل في ستراسبورج . وقامت بالتمثيل في الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل مولير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منها على التعاقب حاملاً ، ورفضاً الزواج منها . وفي سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفي الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى .  
وفي ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها  
لبعض الوقت أكثر من صديق<sup>(٧)</sup> . وفي ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى  
في « المسرح الفرنسي » الذي كان مأواها ومبعث إلهامها في شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت  
بديئة ، وكانت قسامات وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت بركة تفوق  
الوصف في جلستها ووقفها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية في صوتها ،  
وبريق من الشرر والإحساس في عينيها السمرأوين ، وتعبير متحرك كريم  
في وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تتبع  
الأسلوب الخطابي الذي كان قد أصبح تقليدا سائدا في التمثيل في فرنسا في  
المسرح الطويل المستطيل الشكل في المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن  
تمثل دورها وتنطلق بعبارات على خشبة المسرح كما تتحدث في الحياة  
الواقعية ، اللهم إلا في إخراج الحروف من مخارجها والإبانة في اللفظ ،  
ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد  
فيه الجمهور . إنها في فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا في فن  
التمثيل المسرحي . وتحقق هذا أيضا في عمق شعورها ، وقدرتها على نقل  
انفعالات الحب أو رفته ، وكل العطف أو الرعب في أي مشهد مأساوي .  
وتفوقت في الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا في غرامها . وهام بحبها  
الشاب شارل أوجسطين دي قريول كونت أرجنتال الذي كان مقدرًا أن  
يصبح « ممولا ومدعماً بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدة شارل  
لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث  
بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام  
دي قريول ( ٢٢ مارس ١٧٢١ ) تؤكد لها أنها لن تشجع الشاب على  
الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأي شيء يرضيك .  
ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين في ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث في قلبك الرضا والارتياح ،  
ويضني عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهي مواهبه وقدراته .  
وتنمي فضائله لتؤتي ثمارها (٨) .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ،  
وفي سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر في الأوراق التي تركتها  
والدته ، عثر على هذه الرسالة التي لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .  
واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران  
والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسوني كثيراً ما يتردد على  
المسرح الذي تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ،  
ولكنه كان وسيماً عاطفياً خيالياً حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء  
لها مدى حياته ظنته فارس أحلامها الذي طال انتظارها له ، وإذا وصل  
الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فانهم يحيون ويموتون  
عدة مرات مثل القطط ( بسبع أرواح ) . ورضيت به عشيقاً ( ١٧٢١ ) ،  
وعاشا لفترة من الزمن يرشقان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس  
قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندي الشاب الذي أصبح لتوه  
« قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكاً ، وقد رأيناه يسارع إلى  
كورلند ( جزء من لتقيا الحالية ) طمعاً في الحصول على التاج فيها ، وكان  
نصف الأموال التي حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » في بيتها . ولم يكن غير ذي عائد  
فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار مولير ، حتى أصبحت  
من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلماً ، ولم يكن أصدقائها من المعجبين  
العابرين ، ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتيل وفولتير  
ودارجنتال والكونت دي كايوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد  
بعض السيدات الأنبيقات من ذوات الألقاب والاحساب متعة في الانضمام إلى  
هذه الجماعة المتألقة .

وفي ١٧٢٨ عاد الجندي الذي لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت في السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركه مضجعه ، وكان الدم الملكي يجري في عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهي لويزدى لورين دوقة بويون حفيذة بطل بولنده النبيل جان سويسكى ، وكانت تحتال في جرأة أمام موريس في مقصورتها في المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدرين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى في شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللأئي تعلمن ، وهن يلقين ظللا من الجريمة على مظهر الوثام الهادىء الوداع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الحجل من سوء تصرفهن » (٩) .

وفي يولييه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الأنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدرين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدرين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلى كثيراً لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب فى أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولاً . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريثا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالآ إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلاً أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبي ، وكم هى صادقة مخلصه ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا (١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفي فبراير ١٧٣٠ بدأت الأنسة ليكوفريير تعاني من إسهال يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن في أوائل مارس حاولها من المسرح مغنى عليها . وفي ١٥ مارس مثلت ، وهي تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » في رواية فولتير « أوديت » وفي يوم ١٧ مارس لزمّت الفراش ، وصارت تنزف نزيفاً مميتاً من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرتا على العناية بها في هذه الحاتمة الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها في ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدرين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها في الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها في عربة أجرة لدفنه سراً على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . ( في نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدويلد باحتفال عام في كنيسة وستمنستر . ) وفي ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة ( موت الأنسة ليكوفريير يستنكر فيها المعاملة المهينة في دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قاي ، بالأسى والفجيعة . وإني لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولي ، وهي تذرف الدمع . ان ملبومين ( ربة المأساة ) قضت نحبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذي ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرّموا من الدفن من إذا كانت في اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحاً في الهيكل . لقد رأيتهم يقدسونها ويزدحجون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت أبواب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفاتك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبداً جديداً لنا ، تمجده في ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قدسية » .

---

في ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارانست ليجوفيه في باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة .  
تماماً « آدرين ليكوفريير » . . . في ١٩٠٣ ألف فرانسكو سيليا أوبرا في نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحي في ذلك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبر جولتون دي كريبون ، وهو معمر عجوز كان ينبغي له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كريبون قد أنتج فيما بين عامي ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيديس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعاني الفقر ، ويجد بعض السلوى في مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطا وبعض الغرابيب السود . وفي ١٧٤٥ أنقذته مدام دي بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة ( يقبض راتباً ولا يؤدي عملاً ) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله في مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساي ليقدم لها الشكر . ولما كانت هي مريضة ، فقد استقبلته وهي ملازمة الفراش ، قلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاتي ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا » (١٢) . وسر الملك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور في حته على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان ( ١٧٤٨ ) . واهتز كريبون طوباً من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفي ١٧٥٤ وهو في الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيداً بحيواناته ، ولم يطب فولتير نفساً بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضاً أن يواجه في الملهاة منافسه ماريغو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دي شمبلين دي ماريغو أصبح هجاءاً حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعاً تطبق عملياً مفاتها المغربية أمام المرأة . ودق قلبه مؤقتاً فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود في ريوم ، وكَم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصابة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دي تنسان ، وربما زتعم فيه الدعابة المرحة ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح إصابة ماريغو هو رواية « آريكان يصقله الحب » التي عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروي إنه اسرد ثروته بقلمه (١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة ( الكوميديا ) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكاتنا البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعترام زوجين ( أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان ) اعتراما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا انخلاص الخطيب الذي لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخدام وسيدة وخدامة ، في سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة ( في رواية عطيل ) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التي يتورط فيها الحب في هذه الرواية وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال في قصر قرساي ، وفي اللصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتخلت الملهاة الرجولية عند مولير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التي سيطرت على المسرح الفرنسي ( معترضة الطريق ) إلى أيام سكرياب وديماس الابن وساردو .

### ٣ - القصة الفرنسية

إن ماريغو هذا هو نفسه الذي أضفى على القصة في فرنسا شكلا جديدا . وفي ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءاً ، ولم يكملها ( ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣ ) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة في الحب . ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحي ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التي عاشت لتقص القصة في شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة ، بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتعمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتني ألا تبوح باسمي أبداً ، أنا أود ألا يعرفني أحد إلا أنت . » (١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا ، فقد تولى تربيتها رجل برجوازي محسن كريم ، حتى أصبحت بائعة في محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد آثار مسيو دي كليمال . وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جزاء ما قدم . ولكنها رفضته . وأعادت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريغو في ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها في نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخي كليمال ، وهو مسيو دي فالجيل ، الذي كان أقل من عمه مالا وأصغر سناً . ومهما يكن من أمر فإن فالجيل يترك ماريان معلقة ، لما يقرب من ألف صفحة . وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا ختام قصة ماريغو .

تلك هي القصة النفسية في فرنسا القرن الثامن عشر ، التي لم تافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التي كتبها كودرلوس دي لا كلوس (١٧٨٢) . إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دي لا فاييت « الأميرة دي كليف » (١٦٧٨) ، ولو إنها تكاد لا تعادها في رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها في تحليل الدافع والعاطفة ، وهنا نجد امرأة ، مثل بامبلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرفها لأهيتها في سوق الزواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية ، لتقدمها تأبيدا لأحادية الزواج للرجل الذي يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة أكثر تهديبا من الصورة التي أخرجها ريتشاردسن ، الذي بدأ قصة بامبلا بعد تسع سنين من ماريان وربما تأثر بها . وفي مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاريسا » (١٧٤٧) ساعدت روسو في « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريغو خلق الطبقة المتوسطة القوي الحذر . على حين أروع كربيون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كربيون المرح « تميزا له عن أبيه « كربيون المكتتب » ( الذي قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير ) . نشأ كلود بروسيرجولبوت دي كربيون في باريس في عصر الوصاية الذي رجحت أخلاقه التعليم الجزويتي الذي تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلايه وقططه . وفي ١٧٣٤ وهو في السابعة والعشرين اشهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها - كما قال شامفورت - هو مجرد « ملامسة سطحين »<sup>(١٥)</sup> . ووقعت أحداث القصة في اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءاً صريحاً للكنيسة والدولة في فرنسا ، والدوقة دي مين الصغيرة ( الفتاة الجميلة ) ، إلى حد أن الكاردينال فليري أبعد الكاتب - كلود كربيون - عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر في ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث في « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزي ، فيروي كيف أنه تجسد فيا مضى من الزمان على هيئته أريكة ، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التي ابتلى بها زينرك الأريكة . وتعاقبت أحداث الزنى في تفصيل متزايد . ووجد كربيون متعة بالغة في قصته ( Almohid and Mochles ) وهما بعد أن أطنيا في التفاخر بعفتها وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون في الفعل إثم أكبر منه في التفكير ، ومن ثم فانهما يوثمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كربيون يتطلبين عادة جزاء ( عملا ) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ في العملية الحسابية . (١١)

ولقى الكتاب ما كان مقدر له من نجاح . ووجد قراء في عدة لغات

أسرفت كلها في تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كربيون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريغو وكربيون » (١٧) . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خلية كربيون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها (١٨) . وفي ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كولى في تأسيس « الكاف - الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد في الوقار والمزاح . وفي ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقيباً ملكياً على الأدب . ولما توفى والده في ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بنحو أتيهما » .

وفقدت كتب كربيون شعبيتها قبل وفاته بزمن طويل . ولكن في الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المثقفين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دي أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التي أبدعها قلمه . إنه ولد في أرتوا في ١٦٩٧ ، وتعلم في مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهباً مبتدئاً في طائفة اليسوعيين (١٧١٣) ، وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع في شرك الحب ، ونخاب فيه أمله وتحطم قلبه ، وأصبح راهباً بندكتياً (١٧١٩) ، ثم قسيساً ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد في حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيئية » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ في باريس ، وبعد عام قضاه في إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفي ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزي ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعي لكروامول » وهي من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها في ثمانية مجلدات في السنوات التسع التالية . وفي ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سالفه الذكر ونشر المجلد السابع على حدة في باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » ( تأليف مسيود ) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه في باريس لقي رواجاً كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار » (١٩) وقصة مانون موضوعة في قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا في مركبة في طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز - الرجل ذو الحيشة المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التي وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية » (٢٠) . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذق يحرق النظر باكيا في خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاهما ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنينيات ذهبا ؛ مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لوزيانا . ويراه المركيز في كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهي رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المحتد ، مبرزاً في كل شيء في الكلية في اميان ، وكان في عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان في مالطة . وفي غمرة آمالهما العريضة « جعلاني أضع الصليب » (٢١) . ولكن مانون مرت أماً ودخلت حياتي ، وتغير كل شيء . وكانت آنذاك في الخامسة عشرة وهو في السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج في سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقاً كافياً ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلاً

وزوجة ، دون أن نفكر في هذا أو نتنبه له ، ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذي يخبره بأن مانون أصبحت خليعة للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جرييه أن يذهب ليقتل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتي أحد الأصدقاء تيرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خليعة السيد « ب » ويحث دى جرييه على الانتظام في سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتي ، ويصبح راهبا . « وظننت أني تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة في السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هي طريقها إليه ، وتعترف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جرييه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا في ضاحية شبو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذي حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . . لقد عرفت مانون . . . ومهما كانت مخلصه وفيه مغرمة بي في وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها في وقت الشدة . إنها اهتمت كثيرا بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجل ، (٢٢) . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لآخوتها أن يعلموه الغش في لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثري ، وتركت له رسالة تقول فيها « إني أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها في مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليها ، وتوضع هي في الملجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر في الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفذ رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غني أن يتخذها خليلة ،  
ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول  
دى جرييه انقاذها في الطريق ، قلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ،  
وهناك تعلمت أن تحتمل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصه كل الاخلاص  
لدى جرييه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم  
المستعمرة يهيم بحبها . ولما كان مانون ودى جرييه قد أهملوا أن يعقدا عقدا  
شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه في أن يزوجهما من أى فرد في  
المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجها لها . وارى دى جرييه  
لابن قتيلا في مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيافي والقفار سيرا على  
الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق  
الحياة ، « وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفثاي وجه عزيزتى مانون  
ويديها » . وحفر بيديه جدثا لها ويوارىها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى  
نحبه هو الآخر . ولكن صديقه الطيب تيرج ، الذى قدم فى نفس  
الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركز  
ليروى حكايته .

وأصبحت « مانون ليسكو » معينا لا ينضب لقصص حب مبللة  
بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن « محطمة القلب » تدرى الدمع  
على موت مانون وحزن دى جرييه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه  
الخشيسة . وضرب بريفوست على نغمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته  
أخطاء كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب  
مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة  
والقتل . وهى طراز عتيق للبطله ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما  
بلغ الكتاب قدرا أكبر من القوة لو أن دى جرييه ترك لموت على  
قبر مانون .

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو  
نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا فى دى جرييه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشارد سن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشارد سن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفي امسترا في ١٧٣٣ ، وقع في غرام عشيقه رجل آخر . ولما نعى إليه أن البندكتيين استصدموا أمراً بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفي ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيا - وهي جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا ( ١٧٣٤ ) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفي ١٧٥٣ عين في دير سان جورج - دي جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترونها حفيدته بييف لسانت بييف وكأنها حقيقة ، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيلى ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليفف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذى أودى بحياته (٢٣) . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة (٢٤) .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم في تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الدهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير اتجاها مثاليا في قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دي سانت بيير . وبرز التأثير من جديد في « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا في الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفارى » ( ١٨٥٧ ) . ولا تزال مانون تحيا وتموت في الأوبرا .

#### ٤ - حكماء أقل شأنًا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغي علينا في هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل ايريني كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين في أوترخت بكتابه « مذكرة في حفظ السلام على الدوام » . ( ١٧١٢ ) . وهي التي أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، بعرض على نادى « أنترسول » خليطًا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاذاً للدولة ( ١٧٣١ ) . فلماذا كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من الثائرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت لي طرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكثلكة ، فإنه ألحق بها أذى ما كرا في « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج - مثل فولتير في كتابه « محمد » - يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التي قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون ، قصد به بالمثل التشكك في المعجزات الكاثوليكية .

وفي ١٧١٧ ثم في ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوروبا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربي تكون له قوة فرض قبول القرارات التي يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التي يمكن اتباعها في إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبه المالية التي تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للبقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تززع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر ، في عبرة دينية الإيمان بالتقدم ، وفي كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر في العقل العالمى » ( ١٧٣٧ ) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمن طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل في رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق في التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقا لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون في مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه في شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفي الازدهار الرائع في مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٤) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلاتنا الحديثة : تلك هى أننا نخطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة في طريق التقدم ، لم يحدث في مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفي رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلا وحكمة في البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء في الدولة في كل ما يتعلق بالأصلاح الاجتماعى والحلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة ( لا الكنيسة ) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيرا زيادة الإيرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات (٢٦) . وفي ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التى آثرها على الصدقات التى تقترن بفكرة التنازل والتلطف في النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنتمام بزمن طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التي تحققها ، وما ينتظر أن تحققها في المستقبل ، لأكبر عدد من الناس (٢٧) .  
وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالاً أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل في ملك مستنير ، كعامل من عوامل الإصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسداجته واطنابه ، أحد الأذهان التي حملت بذور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالي واهم لا يتفق مع ذهن واقعي . ولد في دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التي تميز بها البريتون . وكان ابناً لوالد برجوازي ميسور ووالدة ماتت في السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش في باريس في عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس في حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه في المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دي لوز » ( ١٧٤١ ) التي كادت أن تكون اتهاماً لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أماتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنقذ حياة زوجها المتورط في مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفي سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ » (٢٨) .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية ( ١٧٤٦ ) بفضل نفوذ مدام دي بمبادور . واشترك بحيوية ونشاط في أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطاً بعث فيها الحياة . وفي ١٧٥١ خلف فولتير في وظيفة مؤرخ لملك وفي ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفي ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لهور دي هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبية من الملحددين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

وإننا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات فى الخير والشر فى هذا القرن » ( ١٧٥٠ ) وهو يتضمن تحليلاً هادئاً دقيقاً مفصلاً عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستله بوقار حكيم خرف « لقد عشت ، وأود أن أعيش لا كون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكا بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفاً للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد<sup>(٢٩)</sup> .

وفى رأيه أن « أكبر نقیصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخاً متزناً ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة ..... فالرجل الفرنسى هو طفل أوربا<sup>(٣٠)</sup> - مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا بتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة نعصف حوله » « لست متأكداً من إنى أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمراً معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان<sup>(٣١)</sup> » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى باللائحة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة الخرافة ( وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

---

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الضوء على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفي) . فيقوضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع . . . والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هي أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين مخزّين ، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جريم المراسل الباريسي للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة ، الصادر من رجل نزل من منابع كثيرة « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جريم كان يزاحم ديكلوس في الظفر بالخطوة لدى مدام دي ايبناي ، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لتصور ديكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن ، شديد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جريم هو الذي أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فإن مدام ايبناي طردت من بيتها هذا العرييد الخائن . وهام رجل الأكاديمية العلامة على وجهه بحثاً عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو في السابعة والستين .

وكان لوك دي كلابير مركيز دي فوفينارج أجدر بالحلب . وفي سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملا يحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد في خدمة الملك . واشترك في مغامرة الماريشال دي بل أيل المنكوبة في حملة يوهيا ١٧٤١ - ١٧٤٣ . وفي الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب في دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسي ، وكاد أن يظفر ببغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدري شوه وجهه . وبدأ يعده يضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال ألقده عن ممارسة أي عمل .

وأصبحت السكنى عزاءه ، وشغله الشاغل . وكان يقول « فوق كل شيء ، إن أحسز الأبناء هي أكثرها شيوعاً ، فإنك تستطيع أن تشتري فولتير مقابل كرون واحد (٣٤) » وحذر من الحكم على الكتب بثقلها ، فإن نخبة المثرفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغي وكثير منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق « (٣٥) .  
وكان مؤلفه الذي دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع في خمس وسبعين صفحة  
مقدمة في التعرف على الروح الإنسانية » ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات  
والحكم » في ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفي فندق حقير في  
باريس ، قضى نحبه ، وهو في الثانية والثلاثين ، وهو يمثل موزار وكيثس  
في الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها ، مثل الملابس والموسيقى  
والعمارة (٣٦) » وقبل بضع سنين قليلة من اضمحاء روسو المثالية على الطبيعة  
والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشي من أجل الغلبة  
والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم ونخداع : السائد بين الملوك ،  
وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على  
الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ،  
وهكذا يجري كل شيء في الكون بالعنف . وهذا النظام الذي نعيبه بشيء  
من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون في الطبيعة (٣٧) .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار و ير مساوين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل  
الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسي هو الانخضاع والتبعية . . . . ومن  
ولد ليطيع ، فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش (٣٨) .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهي أيضا أسطورة أو خرافة « فليست  
الارادة هي العلة الأولى لأي تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » .  
وإذا أوردنا المثل التقليدي على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار  
هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « إنى إذا  
اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى في  
اللمحظة التى تجول ب بخاطرى فيها (٣٩) . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى  
عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده  
يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية (٤٠) .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن في القلب أى في العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة(٤١) . . . . . والأفكار العظيمة تنبع من القلب . . . . . وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل(٤٢) . . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويغفل الآخر ، إنما محرم نفسه في حق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا(٤٣) .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزهُ الأمم من تقدم ونجاح(٤٤) . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت(٤٥) . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن في توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام(٤٦) . وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أرلى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيلة في الشباب(٤٧) .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر في حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يبذل الناس بهما لا جريمة . وحلت الشفقة في قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا في حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فإننا ونحن نرى رباطة جأشه ، ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه(٤٨) .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً » (٤٩) .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي في القرون الثامن عشر . ذلك العطف  
السايغ والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبي العقل » فوفينارج نصير  
بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف  
قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه » (٥٠) . وكتب إليه الرجل  
العجوز الأكبر منه سنا في لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد  
رأيت التور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتي قيمة أكبر (٥١)  
إن أفصح قطعة في مجلدات فولتير المائة هي ما قال في ثابن فوفينارج عند  
تشبيح جنازته (٥٢) .

مونتسكيو ١٦٨٩ - ١٧٥٥

١ - الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح  
القوانين » ( ١٧٤٨ ) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلي في هذا العصر .  
وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما  
من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عام  
قضاها في تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لا بريد ودى مونتسكيو ،  
فى لا بريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتاني ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ .  
وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا  
الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا  
وهناك فى كل مكان » (٥٣) إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح  
ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته  
أمه قصر لا بريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل  
مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل ( أى أباه فى العباد ) ،  
زعماء منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا (٥٤) . وتربى طوال السنوات  
الثلاث الأولى من عمره بين فلاحى القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأوراطورين في جويللي على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفي سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية في القانون .

وفي ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشدة بالنظام الاقطاعي . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفي ١٧١٦ أوصى له عمه - الذي كان قد اشترى رئاسة البرلمان - بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا في الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التي قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المفرضة وحدها<sup>(٥٦)</sup> . وبينما كان يتولى رئاسة البرلمان قضى معظم وقته في الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا في الفيزياء والفسولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التي جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان في الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس في عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفني مارانا « جاسوس السيد الكبير » ( ١٦٨٤ ) الذي نقل فيه جاسوس تركي وهمي للسلطان ، في بذاعة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم في أوربا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا في تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون في « سبكتاتور » ، وكان شارل دفرسني في « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام في باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا ، وكانت ترخمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » ( ١٧٠٤ -

( ١٧١٧ ) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يولييه ١٧٢١ لفت السفير التركي أنظار باريس بفتنه زيه وأساليبه الغريبه . من أجل ذلك كله كانت فونسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان في فرنسا . ومراسليهما في اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مسأ رقيقا . ومن ذا الذي يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسراراً أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك في اصفهان . من ذلك أن زاكي أي محظيته ، تكتب لتبلة بما تعاني من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن اللجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملي الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان في سرد التفاصيل في أسلوب الطيش الذي اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم في فترة نخلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية في الرسائل عين الرقيب والمؤاخذة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نجه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصى رجل متسامح مرح مبهج . وعند ذلك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردتهم في رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود ( كان نظام لو قد انهار . (٥٧) ) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، وخمول النبلاء المبذرين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان ورومة القديمة ، والجمهوريات الحديثة في هولنده وسويسرا . يقول أوزبك « أن الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » (٥٨) ( انظر فيما بعد رأياً مخالفاً ) .

وفي الرسائل من ١١ - ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف ( التروجلوديون ) ( \* ) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت (٥٩) وأرسطو (٦٠) بأنهم قبائل همجية عاشت في أفريقية ( قبل التاريخ ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكومي ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا في جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقي على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلنا العون ، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتتا أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانها دائماً تقريباً . (٦١) ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية - لحكمهم فاختاروا ملكا وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة في الحاكم والمحكومين . . .

وكانت المرطقات الدينية في الرسائل أكثر ترويعا وتنفيرا من المرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى ( مثل زينوفون ) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

---

( \* ) قصد بهذه الكلمة في الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحورا ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزاً وأن الخمر ليس خمرًا ، وألف شيء من هذا الطراز . (٦٢) ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان في إحراق الناس كما يحرق القش » . (٦٣) ويسخر من المسابح وثياب الرهبان الفضفاضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية في منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان في فرنسا وإيطاليا واسبانيا ( قارن إيرلنده في القرن العشرين ) ويقدر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية في أوروبا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى (٦٤) \* ) . أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الحاملين الذين يزعمون انهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً ٥ إنهم عصابة من البمخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبداً . إنهم باستمرار يكتزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل في التجارة أو الصناعة أو المصانع » (٦٦) ويقلق أوزبك التفكير في أن كفار أوروبا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل في أنهم في النهاية سيعتقون الإسلام ويُنقذون (٦٧) .

وفي تخيل رمزي جليل يتأمل أوزبك في الالغاء (١٦٨٥) مرسوم هنري الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان ( لويس الرابع عشر ) دبروا خطة لارغام الأرمن في فارس ( الهيجونوت ) على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام ( الكثلكه ) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

---

(\*) ذهب مونتسكيو في ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوروبا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها في عهد الامبراطورية الرومانية (٦٥) وأنه أخذ في التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين هؤلاء الكفار عبدة النار اضطهرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية ( فرنسا ١٧١٣ ) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار الزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التى تعتقد أنها فى صعود (٦٨) .

إن الأفكار التى تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية فى التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحرريته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصى على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار وسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الإفصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتي بها رجل ذكى بسهولة ، ولكن ينبغى على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ماريفو الحريص « يجدر أن يضمن الإنسان بمجهوده فى مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عند ما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء » (٦٩)

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة في المجتمع وفي الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دي تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه في لا بريد فلم يكن من العسير أن يقع في شرك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتاقت نفسه إلى ماري آن دي يوربون أنحت الدوق دي يوربون الذي أصبح رئيسا للوزارة في ١٧٢٣ . ويروي من أنه ألف من أجلها شعراً منشوراً « معبد الحب » ( ١٧٢٥ ) عامراً بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكي بطبعها . وبذل المساعي وبخاصة عن طريق مدام دي ري ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم في باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلي عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين ( ١٧٢٨ ) .

وفي أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضي الراين وهولنده ، وإنجلترا . التي قضى فيها ثمانية عشر شهرا ( نوفمبر ١٧٢٩ - أغسطس ١٧٣١ ) وهناك عقد أواصر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضوا في الجمعية الملكية في لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار ( الماسونية ) ، واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطاني . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الإعجاب - مثل فواتير - بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لا بريد ، وحول منزله إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ - فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس - لأبحاثه وكتاباته التي شغلت بقية أيام حياته .

## ٢ - لماذا سقطت رومة

في ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع ، ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعي ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذي صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا في سياسته ولاهوته . ولم يستسخ المتطرفون ( الراديكاليون ) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقى سببا للاضمحلال القومي ، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير الحكمة الرائعة في عبارات مثل « أن اللذين لم يعودوا يرهبون القوة في مقدورهم أن يظلموا على احترامهم للسلطة » . (٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة في فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسي تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض في نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية - وهي عملية الفناء أو الانحلال الذي يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور في الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه في أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت في فترة طويلة من الاضمحلال في الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو - لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكرى والعقلى في القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت في حقيقة أن مونتسكيو ، في ايضاحه وشرحه لمجربى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا في هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التي نجدها في كتاب بوسويه « بحث في تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها في الفضاء : « ليس الحظ هو الذى يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها في كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص يعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذى قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحدة . وصفوه القول إن الحركة العامة نجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة<sup>(٧١)</sup> .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد في التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » . فلو أن قيصر وبومبي فكرا مثل ما فكر كاتو ( سعيا في الإبقاء على سلطة السناطو الرومان ) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذلك كانت الجمهورية التي كان مقدرأ عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى<sup>(٧٢)</sup> .

ولكن « القدر » ليس توجيهها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلاسفيين ، في رأى مونتسكيو ، هي الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة ( في نظره ) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم في مدينة واحدة في يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . ويمرر الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسي : انتشار الخنوع والحمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء في أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكري وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إثارة الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعهم عن حماية الحدود من هجمات المتبربرين . . . . . ومن الجائز أن مونتسكيو - على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية - لم يقدّر كبير وزن لتغيير الديانات ، الذي أكدّه جيبيون سيبا أساسيا لانهايار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسي في اضمحلال رومه - وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن في الوقت الذي حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت في الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهي مخالفة لمبادئ الجمهورية (٧٣) .  
ومهما يكن من شيء فأنا إذا عدنا إلى الفصل السادس لتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التي قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة متنوعة غريبة : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجاً ، ( فرق تسد ) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم في القضاء على أعدائهم ، وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء (٧٤) وواضح - أن مونتسكيو - ناسبا هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدردا مكيافلملى في جرعة واحدة - اعتبر في الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلاً أعلى للعظمة ، ورثى الامبراطورية منزلقاً بهيجاً للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة في الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية في ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونيين » (٧٥) وهنا وجه مونتسكيو كلا من جيبيون ورينان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة في تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضاً أخلاق الرواقين التي فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان في عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم في تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون في فرنسا .

ووقع في الكتاب بعض أخطاء في عمل علمي عجل به ضغط الوقت والرغبة في إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو في بعض الأحيان مدققا في استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التي كتبها ليفي عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشي وقيصر ، ولكن في مقابل مواطن الضعف هذه ، فإن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة في أن يرسم في صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهة ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين » .

### ٣ - روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالي ١٧٢٩ ، وهو في سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيلة جانبية أو ثانوية اعتراضية . وفي ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقي من العمل نصبا وكان به ميلا إلى تركه ، « كثيرا ما شرعت في هذا الكتاب ، وكثيرا ما طرحته جانبا . وقدفت بالأوراق التي كتبها ألف مرة . »<sup>(٧٦)</sup> وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضناني الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبي البهجة والفتنة اللتين تدفعان بي إلى السير في الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عني أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »<sup>(٧٧)</sup> . ولا بد أن هؤلاء الرببات استجبن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة في خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزهوه : لقد سلكت طريقى نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عندما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفقش عنه ، وفى غضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فانى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرقتوا هذا الموضوع قبلى ، تملكتنى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتي ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام » (٧٨) .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهينولت وفونتيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى . (٧٩) وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسىء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم (٨٠) . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبوه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى ما لشرب - منقذ دائرة المعارف فيما بعد - شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوروبا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمي كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول ان يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمي » : أي - على غرار البحث في العلوم الطبيعية - التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تذبذبات مشروطة للمستقبل . وكان عبيراً بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأنتولوجيا ( علم الأعراق البشرية ) والتشريع والتاريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « - أي أصلها وطبيعتها ونزعتها - إنما يحددها أولاً مناخ البلد وقربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعمياً هي العلاقات الضرورية التي تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتي « بالقوانين الطبيعية » في العالم المادى ، والاطرادات القياسية في التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ - القانون الطبيعي ، الذي عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » <sup>(٨١)</sup> أي « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلاً . ٢ - قانون الأمم في علاقاتها بعضها ببعض . ٣ - قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ - القانون المدنى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه في الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم في القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزوعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل في تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه ( وشخصيته القومية ) . ( إن بودين في القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل في القرن التاسع عشر ) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية في الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق في القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل لمثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل في الانتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدر أقل من الارتياح ومن الدهاء السياسى والمكر . لقد شهدت الأوبرا فى إنجلترا وفى إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة فى كل من الأمتين ، فأحدهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدى أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واثته الظروف ، أن يحقق رغباته الجامحة . . . »

وفى البلاد الحارة نجد الماء الموجود فى الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمّة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما فى البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلاً ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتمخّر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة فى الجو (٨٢) . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث فى البلاد الحارة يكن صالحات للزواج فى سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن فى سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجاهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل ههنا المطلب . وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . . ومن ثم ينبغى أن تكون

هؤلاء السيدات في حالة من التبعية ، لأن العقل في الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التي لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود في هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفي المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن في مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج ( أكبر من مثيلتهن في الأقاليم شبه المدارية ) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب في أن الإسلام ( مع نظام تعدد الزوجات ) دخل بسهولة واستقر في آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوروبا ، وأن المسيحية استقرت في أوروبا وتحطمت في آسيا . وقصارى القول ، هذا هو للسبب في أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم في الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلاً (٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراساً منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلمة الأسمى ، الله ، الذي يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الحجل .

وسرعان ما تابع تعميماته الطائشة . ففي « الشرق » ، ( تركيا وإيران والهند والصين واليابان ) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن ( الهواء الحار يثير الشهوات ) وقد يعرض تعدد الزوجات وأحاد به الزواج على حد سواء للمخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال في ( بلادنا في الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفي لتوجيهه وقيادته ) (٨٤) . إنها لمتعة أية متعة أن تعيش في مثل هذه

الأجواء التي تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتي تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن في إدخال السرور والبهجة على الجميع (٨٥) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو للقانونية - وينبغي لها أن تتحكم - في العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجباها في الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة ( الأسباب الطبيعية ) . والعادات والأعراف وظيفية الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته . والعرف ، في الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأني ونسير بخطى وثيدة في تغيير العادة والعرف . وتأني العادة أن تتبدل بالقانون عادة (٨٦) .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القومي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي . وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، ونخضغت للحكم الملكي . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها (٨٧) . ويجدر أن تركز الملكية على ( الشرف ) ، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو ايثارهم بالحظوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر ( الفضيلة ) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها ( حب الإنسان لبلده - أعني حب المساواة ) (٨٨) .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها :  
هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا  
(البندقية) كجمهورية أرستقراطية . وبعدهن الدول القديمة على أنها ديمقراطية  
وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح  
الحكم الذي أقامه وليم بن في أمريكا . ويمتدح في حماسة أكبر انشاء المناطق  
الشيوعية الدينية التي أسسها اليسوعيون في باراجواي<sup>(٨٩)</sup> . والحق يقال  
على أية حال إن الديمقراطية الآمنة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية  
والسياسية معاً ، وأن تنظم الموارد والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة  
التصاعدية على الثروات<sup>(٩٠)</sup> . أن خير تلك الديمقراطيات هي التي يعترف  
فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التي تنتهجها بلدهم ، ومن ثم  
يقرون السياسة التي يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغي على الدولة  
الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة  
المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون في مستوى أولئك الذين اختارهم  
ليأتمر بأمرهم . . . . وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة في  
الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة في ممارسة مهام  
الحكام الذين لا يعود لهم أي توقير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف  
بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه ، ولا احترام  
لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك  
الإذعان للوالدين أو الأزواج والامثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء  
محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم . . .  
وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بإدارة الأمور  
بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشيء من  
هو الترف<sup>(٩١)</sup> .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين :  
تنقلب الديمقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك في مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه يخشى الاستبدادية التي ذهب إلى إمكان قيامها في الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادي وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لوزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية (٩٢) » أي أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرات كفاية ومقدرة ليحمي قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التي أوردها لهذا شرقية بشكل يطمأن إليه ، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد ، حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الأرستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطابقة (٩٣) » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلاً فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقتهم إلى مجرد أفراد في الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكي الأرض والحكام الوراثيين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعي بتفصيل شديد ( ١٧٥٣ صفحة ) ، موضحاً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر الذي امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » ، تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفي الصراع الذي استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد في « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تمييزه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً - ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في الحكومة (٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم و ثروتهم وألقابهم ، فإذا تساوا واخلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة ، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أي اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرنو وسيدني ولوك ، ومن الخبرة التي اكتسبها في إنجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم في إنجلترا هي بمثابة كايح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى في إنجلترا رقابة نشتر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالي حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الإستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر في الأخذ بحق المتهمين في إنجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم في هيئتهم . » إنهم كذلك لهم الحق في محاكمتهم أمام نظرائهم (٩٦) .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه في السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والتزام في الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، ( التطرف ) رسالة نافعة في الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة في أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور في ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها « حق كل إنسان في عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية (٩٧) . » واتفق مع زميليه جاسكون ومونتاني ، على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هي ، لأن الأسباب - هي غالباً معقدة أو غير معروفة - التي هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر في الإبقاء عليها ( أي على هذه الحكومة (٩٨) ) .

ورفض فكرة المساواة في الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جراتسي في تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التي تكفي لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسرهم . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التي تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التي دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفي هذا الوضع يجسر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغي أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها (٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال  
الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة في حماسة أخلاقية وتهكم لاذع (١٠٠) .  
واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة -  
المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضي : إن حق الدفاع الطبيعي قد ينطوي  
أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل  
المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ  
يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير  
السلام (١٠١) .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل  
أوروبا ، فأصاب أمراءها وأغرامهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ،  
ويصبح بالضرورة معدياً ، فإنه إذا شرع ملك في زيادة قواته ، فإن الباقيين  
بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لانجني من هذا إلا الدمار الشامل (١٠٢) .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكرم تقدير إلى حد أنه سوى  
بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده في بعض الأحيان حلم مبادئ أخلاقية  
أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ولكنه يضر بأسرتي ،  
فينبغي علي ألا أقدم عليه ، وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصي ، ولكنه  
يضر بأسرتي ، وليس لوطني ، فيجدر بي أن أحاول أن أنساه ، وإذا رأيت  
أن شيئاً ذا فائدة لوطني ، ولكنه يضر بمصلحة أوروبا والجنس البشري  
فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية (١٠٣) » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادئ أخلاقية وديانة خفية هو مذهب  
الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادئ أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة  
البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى  
عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب  
الرواقيين محنة من بين المحن التي ابتلى بها الجنس البشري . . . إن هذا  
المذهب وحده هو الذي صنع المواطنين ، وهو وحده الذي صنع عظماء  
الرجال وهو وحده الذي صنع الأباطرة . وإذا نمينا جانباً الحقائق التي

كشفت عنها لحظة ، وفتشنا في الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه ( وهو إطرأ انتزع مني أرجو ألا يجعلني شريكاً في جريمة الردة ) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشري (١٠٤) .  
وواضح أن مونتسكيو حرص في « روح القوانين » على مسألة المسيحية .  
إنه اعترف بوجود الله - فأى حق أفضح من قضاء وقدر أعنى خلق كائنات ذكية (١٠٥) . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين (١٠٦) » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقي لا يلتزم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيدا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية (١٠٧) » .  
وينبغي أن تكون الدولة والكنيسة رقية كل منهما على الأخرى ، كما ينبغي أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم (١٠٨) . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل (١٠٩) .  
ولكنه أخضعه ، مثل أى شيء آخر لتأثير المناخ والخلق القومي : « إن حكومة معتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامي . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم في هذا البلد الثاني ، وإذا أدخلت كان ما لها النبذ والرفض (١١٠) . . . . والمذهب الكاثوليكي أكبر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية . . . . وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كتلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتقدون البروتستانتية ، على حين يظل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية . والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التي لا يكون لها رئيس بارز هي أكثر ملاءمة لهم (١١١) .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالاً فإننا نراه يسهب في نقده ،  
واستنكر شراء رجال الدين في فرنسا (١١٢) . ودون « أفضح احتجاج على  
محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم  
من أنه « إذا تجرأ أحد في الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس في أوروبا في  
عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لا بد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا  
متبربرين (١١٣) » ومخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ  
وألح في أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح  
الديني موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية في اعتناق أو نبذ أى  
دين جديد ، فينبغي أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح  
معه (١١٤) . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلانياً ، فالعقل هو  
أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا (١١٥) » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل  
من هذا ؟ .

#### ٤ - النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضحماً في الأدب  
الفرنسي ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسونيون  
واليسوعيون ، وهم على طرفي نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه  
رفض ما كره خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهي  
لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعارضة التي يضعها المؤلف ليقول  
لنا إنه مسيحي تؤكد لنا توكيداً هزيباً أنه كاثوليكي ، وإن المؤلف ليسخر  
من سداجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . ونختم المحرر حديثه ببناء  
وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب (١١٦) . واتهم اليسوعيون  
مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافراضه وجود قوانين في التاريخ  
مثلما هي في العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالاً لحرية الإرادة . ودافع الأب  
برتييه في صحيفة « تريفيو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليس  
نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن تركز على مبادئ  
عامة من الله : لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والحلق القومي (١١٧)

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر في ١٧٥٠ « دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجزرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين .

وكان الفلاسفة الناشئون في ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً في المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الميني (١١٨) . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعي والمصاعب التي تعترضه (١١٩) . أما فولتير الذي كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ في بحث « في الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسى معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضواً فيها ، وسيكون العار عليه يوماً ما ألا يكون عضواً فيها (١٢٠) .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعتراض بأن مونتسكيو كان مبالغاً في تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت في أرض اليهود الحارة ، وأنها لا تزال مزدهرة في الترويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن إنجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنري الثامن كان فاتراً (١٢١) . وإذا كانت روح الحرية نشأت - كما ذهب إليه مونتسكيو ، في الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولندية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين ( وفي التاموس الفلسفي ) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير (١٢٢) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شيء ( لم يزعم مونتسكيو هذا ) لماذا يقول الإمبراطور جوليان في رسائله إن الذي سره في الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير في المناخ ، أطفالاً لعبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، في نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، في لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً (١٢٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقلاب أو الاكتاب ، وهو عكس ما يرددونه في كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس في المناطق الحارة جنباء مثل العجائز ، أما في المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان في مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا في ثمانين عاماً من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٢٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة في ، « روح القوانين . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذي اضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه في المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا في هذا الموضوع كانت كتاباتهم مملّة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأيت إحدى السيدات ( مدام دي ديفان ) وهي تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء في القوانين » ، وهو أصح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخزافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالماً ، ولكنه كان دائماً على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدي الرقيق . أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٢٥) .

وأضاف في موضع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة ( من أجل الحرية ) واستردها مونتسكيو (١٢٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض تلي

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي الخمس مونتسكيو ليكون عالماً ، يجمع الحقائق ويفسرهما ، لم يعد فناً . أنه ضييع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها - مثال ذلك أيرلندا الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلي من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادئ الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس لإنتاج لهذه المبادئ » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة إنجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطي على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لا بد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من شطايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن الحكم الاستبدادي المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاهم ضعف بصره مما اضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراف والروعة في الرسائل الفارسية . ويروي فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساخرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس في فينيسيا مقترنون غاية التقدير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود (١٢٨) . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو في بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألباز .

وكان مونتسكيو متواضعا كما كان مصيبا في أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعه وهدفه . أنك لكي تعثر على قوانين في القوانين ، وعلى نظام في تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولكي تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس - فهذا عمل جليل ضخيم تقتضى ضخامته وجلاله الصنفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر في نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من المعاونة في البحث ، وبسبب نفس الرغبة في استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة في الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (\*) بالتأليف في هذا الموضوع ، ولكنه جعل بوضع المنهج التاريخي بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق نواتير في وضع فلسفة للتاريخ مستقاة عن الأسباب الحارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة في الرأي لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر (١٣٠) واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزاناً في هذا العصر (١٣١) ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الإطلاق (١٣٢) وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر في هذا الجليل .

لقد أنك هذا الكتاب مؤافه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلتني . سأخذ إلى الراحة وإن أعمل شيئا بعد الآن (١٣٣)

---

(٠) أبقراط : الهواء والماء والأماكن . ارسطو : دساتير أثينا . ميكافيللي : المقالات . بودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لي هي خير علاج لكل خيبة أمل في الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها في القراءة (١٣٤) .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التي كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك ( ١٧٤٨ ) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اثنا نجده في مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شبابنا المتألق (١٣٥) ورحبوا بالمؤلف من جديد في الصالونات واستقبلوه في البلاط الملكي ، ولكنه قضى معظم الوقت في لا بريد حيث قنع بأن يكون سييدا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفي سنه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لي أن الأثر الخفيف من البصر الذي بقي لي ليس إلا فجر اليوم الذي تغلق فيه عياني إلى الأبد (١٣٦) وفي ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانتهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوي وقضى نحيبه في ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو في السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذي شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللاأدرية (١٣٧) وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جييون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحقيق التي أثارها أقل مآثر الكاتب علينا (١٣٨) » وكان جييون وبلاكستون وييرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثيرين الكبري أنه ينبغي أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك (١٣٩) واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الامريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك .

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو<sup>(١٤١)</sup> وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله في فرنسا .